خطبة صلاة الجمعة 7/9/2012 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

www.dr-shaal.com

(الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبدُه ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111].

أيها الإخوة:

أخبار العلماء العاملين والحكماء الصالحين والمجاهدين المتقين تغرسُ الفضائلَ في النفوس، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وترفعها فوق شهوات الماء والطين لتصل بها عليين.

ومن هنا قال بعض العلماء: الحكايات جند من جنود الله تعالى، يثبّت بها قلوب أوليائه.

نحن في الخطبة الثامنة من سلسلة (أعلام من الشام) التي أحدّثكم في كل خطبةٍ منها عن واحدٍ من أعلام هذا البلد التقيّ المرابط المبارك الكريم الصابر، عن علَم وُلِدَ هنا، أو مرَّ من هنا فعاش حقبةً من الزمن، أو توفاه الله في هذه البلدة.

والأعلام المختارون من بعد عصر الصحابة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة.

كنت قد تحدثتُ إليكم عن السلطان الشهيد نور الدين زنكي، وعن السيدة ستِّ الشام، وعن مؤرخِ دمشقَ ومحدثِها الإمامِ الحافظِ ابنِ عساكر، وعن سلطانِ العلماء العزِّ بن عبد السلام، وعن الإمام الأوزاعي، وعن الإمام ابن كثير، وعن الحافظِ الذهبي، وحديث اليوم عن:

الملك الناصر سيدنا صلاح الدين الأيوبي

قال ابنُ كثيرٍ عنه: (كان رِدْءاً للإسلام وحرزاً، وكهفاً من كيد الكفرة اللئام، وذلك بتوفيق الله له، وكان أهلُ دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وودَّ كلٌّ منهم لو فداه بأولاده وأحبائه وأصحابه).

أيها الإخوة:

ترجم للسلطان صلاح الدين الأيوبي العشرات أو المئات من العلماء وغيرهم ومن المسلمين وغيرهم، وقد اطلعتُ على عدد من هذه التراجم، فوجدتُها في وصفه مشتركةً بأمورٍ أربعة في ظاهرهِ وخامسٍ وقرَ في قلبه، هذه الخمسة هي محاورُ خطبةِ اليوم وهي الفائدة العمليةُ المرجوةُ من الخطبة.

أمَّا ما وقر في قلبه فقولهم: همُّه الأكبر ومقصدُه الأعظمُ نصرةُ الإسلام، وكسرُ أعدائه اللئام.

وأريد أن أسألك الآن: ما الهمُّ الأكبرُ الغالبُ عليك، وما الذي يشغلُ قلبكَ وعقلَكَ وجوارحَك؟

قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صُوَرِكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**. [رواه البخاري ومسلم]

وقال رسول الله ﷺ: **«يحشر الناس على نياتهم»**. [رواه البخاري ومسلم وابن ماجه]

وعن ابن عمر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«من جعل الهمومَ همَّاً واحداً كفاهُ اللهُ هَمَّ دنياهُ، ومن تشعبتْ به الهمومُ لم يبالِ اللهُ في أي أودية الدنيا هلك»**. [صححه الحاكم والذهبي]

فقد كان الهمُّ الأكبر لسيدنا صلاح الدين نصرةَ الدين.

وأما الأربعة الظاهرة:

فمحبتُهُ للعلم، وإكثارُهُ من العبادة، والتزامُهُ الأخلاقَ الفاضلةَ، وشغفُهُ بالجهاد في سبيل الله، علمٌ، وعبادةٌ، وخلُقٌ، وجهادٌ!

أما محبته للعلم: فقد كان -رحمه الله- يحضرُ مجالسَ العلماء يتعلمُ منهم، أو يُحضرهم مكرمين ليعلموه، وخاصةً علماء الحديث، قال صاحب النوادر السلطانية:

(كان شديدَ الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمعَ عن شيخٍ ذي روايةٍ عاليةٍ وسماعٍ كثير فإن كان ممن يحضرُ عنده استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه، وكان -رحمه الله تعالى- يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ... فإذا مر بحديثٍ فيه عبرةٌ رقَّ قلبُهُ ودمعت عينُه).

بل إنه -رضوان الله عليه- ربما طلب من يُسمعُه حديث رسول الله ﷺ وهو يسوي جنده للقتال! قال ابنُ كثير: (سمع في بعض مصافّه جزءاً وهو بين الصفين ... وقال: هذا موقفٌ لم يَسمعْ أحدٌ في مثلِهِ حديثاً).

ومن محبته للعلم كان يحرِصُ على لقيا الشيوخ والعلماء وإكرامهم، فكان يوصي مَن حوله ألا يغفُلوا عمن يمر بهم ويرِدُ عليهم من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار حتى يُحضرَهم عنده وينالهم من إحسانه.

وأما إكثاره من العبادة: فقد كان -رحمه الله تعالى- شديدَ المواظبة على الصلاة بالجماعة، حتى إنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلا جماعة!

وكان إذا مرض يستدعي الإمامَ وحدَهُ ويكلفُ نفسَهُ القيام ويصلي جماعةً.

وكان يواظبُ على السنن الرواتب، وله صلواتٌ يصليها إذا استيقظ في الليل وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح. وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى.

وأما الزكاة فإنه مات -رحمه الله تعالى- ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة، وسرقت صدقةُ النفل جميعَ ما ملكه من الأموال، فإنه ملك ما ملك ولم يخلِّفْ ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك.

وكان -رحمه الله تعالى- يحب سماع القرآن العظيم ويستجيد إمامه، ويشترط أن يكون عالماً بعلم القرآن العظيم متقناً لحفظه. وكان يستقرئ من يحرسه في الليل وهو في برجه الجزءين والثلاثة والأربعة وهو يسمع.

واجتاز مرةً على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فقرَّبه وجعل له حظاً من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزأ من مزرعة.

وكان -رحمه الله تعالى- خاشعَ القلب رقيقَه، غزير الدمعة إذا سمع القرآن، يخشع قلبُهُ وتدمعُ عينُهُ في معظم أوقاته.

أما التزامه الأخلاق الفاضلة: فقد حدَّثوا عن عدله وكرمه ورحمته وملاطفته الصبيان وشجاعته وحسن عشرته وصدق وعده ووفائه الكثير، وأحبُّ أن أقرأ عليكم شيئاً مما جاء في عدله ورأفته، إذ هي أغلى صفات القادة والسلاطين، وأضدادها مهلكتهم.

(كان صلاحُ الدين عادلاً رؤوفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي، وكان يجلسُ للعدل كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كلُّ أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً، على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل، ولم يرُدَّ قاصداً للحوادث والحكومات، واستغاث به إنسانٌ من أهل دمشق يقال له: ابنُ زهير على تقي الدين ابنِ أخيه، فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم، وكان تقيُّ الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده، ولكنه لم يحابه في الحق).

وخاصمه رجلٌ فحضر بنفسه في مجلس القضاء وجرت محاكمته حسب الأصول، وتبينَ جورُ الرجل على صلاح الدين وبراءة السلطان، وحكم بذلك القاضي فتقدم صلاح الدين للخصم بخلعة نفقة بالغة تطييباً لخاطره.

أما رحمته ورأفته: فجاءته يوماً امرأةٌ افرنجيةٌ وكانت ابنتُها قد اختطفت فقالت له: قيل لي إن الملك رحيمٌ، ونحن نُخرِجُكِ إليه تطلبين إليه ابنتك، فأخرجوني إليك، ولا أعرف ابنتي إلا منك،

فرقَّ لها ودمعتْ عينُهُ وحركتهُ مروءتُهُ، ولم يقرَّ له قرارٌ إلا بعد العثور على ابنتها وتسليمها لها، ثم حُمِلت حتى أُعيدت إلى معسكر الافرنج).

هذه رحمته مع أطفال الأعداء ونسائهم، فما بالك به مع أبناء جلدته وأهله ودينه؟!

أما الفقرة الأخيرة من الخطبة وهي الصفة الرابعة في سيدنا صلاح الدين الأيوبي فهي:

شغفه بالجهاد ودوامه عليه:

اعلموا -أيها الأخوة- أن النبي ﷺ سئل مراراً في أزمنةٍ مختلفةٍ وأمكنةٍ مختلفةٍ ومن أشخاصٍ مختلفين: يا رسول الله أيُّ العمل أفضل؟ أي الإسلام خير؟ أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟

ويجيب رسول الله ﷺ بأجوبةٍ عديدةٍ:

فمرة يقول ﷺ: «**تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**». [البخاري ومسلم] ومرة يقول: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا، ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، ثم الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**». [البخاري ومسلم] ومرة يقول: «**أن تموتَ ولسانُكَ رطبٌ بذكر الله**». [الطبراني في الكبير]

ويدرس علماء الشريعة هذه الأحاديث، ويقولون: إذاً أيُّ العمل أفضل؟ ولماذا اختلف الجوابُ؟

فيجيبون بأن الجواب جرى على حسب اختلاف الأحوال والأشخاص، ولكنَّ كثيراً منهم أتفقوا على أنَّ أفضلَ الأعمال على الإطلاق الجهادُ في سبيل الله، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: 10 - 13]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ما يَعْدِلُ الجهادَ في سبيل الله؟ قال: «**لا تستطيعونه**» فأعادوا عليه مرتين، أو ثلاثاً، كلُّ ذلك يقول: «**لا تستطيعونه**» ثم قال: «**مَثَلُ المجاهد في سبيل الله، كمثل الصائم القائم القانِتِ بآيات الله، لا يَفْتُرُ من صيام ولا صلاة، حتى يرجعَ المجاهدُ في سبيل الله**». [أخرجه مسلم والترمذي]

سئل النبي ﷺ أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمانٌ بالله، وجهادٌ في سبيله**». [البخاري ومسلم]

وأي منزلةٍ أعظمُ من منزلةِ رجلٍ باع نفسه وماله وجاهه لله؟!

واعلموا –أيها الإخوة– أن الجهاد كما يكون بالمباشرة يكون بالمعاونة، فقد عرَّفهُ ابنُ عابدين في حاشيته الشهيرة: (هو بذلُ الوسع في القتال في سبيل الله مباشرةً، أو معاونةً بمالٍ، أو رأيٍ، أو تكثير سوادٍ، أو غير ذلك؛ كمداواة جرحى، وتهيئةِ مطاعمٍ ومشارب وغيرِها).

قال صاحب النوادر السلطانية في وصف صلاح الدين:

(كان حبُّهُ للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوارحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديثٌ إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا كان له اهتمامٌ إلا برجاله، ولا ميلٌ إلا إلى من يذكره ويحث عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهلَه وأولادَه ووطنَه وسكنَه وسائرَ بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنةً وميسرةً. ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا فلو لم يكن في البرج لقتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبةً ومصابرةً واهتماماً. وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً).

ولقد عَدَّ اللواء محمود شيث خطاب في كتابه النفيس "بين العقيدة والقيادة" لصلاح الدين اثنتين وثمانين مدينة وبلدة وحصناً فتحها واستردَّها من أيدي الصليبيين، ثم قال: فإذا أضفنا إليها توحيدَه مصرَ وأرضَ الشامِ وجزيرةَ ابنِ عمر، قلنا: إن صلاح الدين من أعظم قادة المسلمين جهاداً وجهوداً وإخلاصاً وحميةً وفتوحاً.

ذكر ابنُ كثير في البداية والنهاية: أن صلاح الدين خرج من دمشق إلى غزاة غاب فيها ملياً، فلما عاد إلى دمشق وجد الصفي بن الفايض وكيل الخزانة قد بنى له داراً بالقلعة هائلةً، فغضب عليه وعزله وقال: إنا لم نخلق للمقام بدمشق ولا بغيرها من البلاد، وإنما خلقنا لعبادة الله عز وجل والجهاد في سبيله، وهذا الذي عملته مما يثبط النفوس ويقعدها عما خلقت له.

وقف يوماً أمام البحر قرب عكا وقال: (في نفسي أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمتُ البلاد وأوصيتُ وودعتُ وركبتُ هذا البحر إلى جزائره واتبعتهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت).

وطلب إليه أحدُ العلماء ألا يخاطر بنفسه في الغزو فسأله قائلاً: أنا أستفتيك: ما أشرف الميتات؟ فقال الموت في سبيل الله، فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات.

أيها الإخوة:

الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي هو يوسف بن أيوب وُلِدَ سنة 532 ثنتين وثلاثين وخمسمائة في تكريت بالعراق، وتوفي بقلعة دمشق سنة 589 تسع وثمانين وخمسمائة ، عن سبع وخمسين سنة، كان القارئ يقرأ أمامه من سورة الحشر فوصل إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قال: فَسَمِعْتُ صَلاَح الدِّيْنِ، وَهُوَ يَقُوْلُ: صَحِيْح. ثم طُفئ.

هذا شيئ عن سيدنا صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنه: وقر في قلبه نصرةُ الإسلام، واكتسى بأربعةٍ: علمٍ، وعبادةٍ، وخُلقٍ، وجهادٍ..

رحم الله السلطانَ الملكَ الناصر فاتحَ القدس صلاحَ الدين الأيوبي، وجعلنا وذرارينا على نهجه، وجمعنا معه في مستقر رحمته.

والحمد لله رب العالمين